القصص الديني

الحلقة الثالثة

قصص الخلفاء الراشدين

التحكيم

١٩

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللّـهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

(قرآن كريم)

١

دار القتالُ رهيبا فى « صِفِّين » بين الإمام علىٍّ ومعاوية ، وأحسَّ معاويةُ أنَّ الغلبةَ لِعَلىّ ، فأمر أهلَ الشَّامِ برفعِ المصاحفِ على الرِّماح ، فاستقبل أهلُ الشَّامِ عليًّا بمائةِ مُصْحَف ، ووضعوا فى كلِّ مُجَنّبةٍ مائتى مُصحَف ، ثم قام رجالٌ من أهلِ الشَّامِ ونادوا :

ـ يا معشرَ العرب ، اللّهَ اللّهَ فى نسائكم وبناتِكُمْ . فمن للرُّومِ والأتراكِ وأهلِ فارسَ غداً إذا فنيتُم . هذا كتابُ اللّه بيننا وبَينكم .

وخُدِعَ أهلُ العِراق ، فقالوا لِعَلىّ :

ـ يا علىّ ، أَجِبِ القومَ إلى كتابِ اللّهِ ، إذ دُعيت إليه ، وإلاّ قتلناك .

وقبلَ علىّ هذه الخديعةَ وهو كاره ، وجاءه أحدُ الذين يُحبِّذون التحكيمَ من رجالِه ، وقال له :

ــ يا أميرَ المؤمنين ، ما أرى النّاسَ إلاّ وقد رضُوا ، وسرَّهم أن يُجيبوا القومَ إلى ما دعَوْهم إليه من حُكمِ القرآن ، فإن شئتَ أتيتُ معاوية ، فسألتُه ما يريد ، ونظرتُ ما الذى يسأل .

ــ إيتِه إنْ شئت .

فأتاه فسأله فقال :

ــ يا معاوية ، لأىِّ شيء رفعتُم هذه المصاحف ؟

ــ لنرجعَ نحن وأنتم إلى ما أمَرَ اللّهُ به فى كتابه ، فابعثُوا منكم رجلاً ترضونَ به ، ونبعث منّا رجلا ، ثم نأخذُ عليهما أن يعمَلا بما فى كتابِ اللّه ، لا يَعدُوَانِه ، ثم نتّبعُ ما اتّفقا عليه .

ــ هذا هو الحقّ .

وقال النّاس :

ــ قد رضِينا بحكم القرآن .

وقال أهلُ الشّام :

ــ فإنّا رضِينا واخترْنا عَمرَو بنَ العاص .

وقال بعضُ أهلِ العراق :

ـ فإنّا قد رضِينا واختِرْنا أبا موسَى الأشعريّ .

ـ إنّي لا أرضَى بأبي موسى ، ولا أرَى أن أُوَلّيَه ، ولكن هذا ابنُ عبَّاس أُولِّيه ذلك .

كان ابنُ عبَّاس ابنَ عمٍّ علىّ ، لذلك قال بعضُ أهل العراق :

ـ لا نريد إلاّ رجلاً هو منك ومن معاويةَ سواء ، ليس إلى واحدٍ منكما بأدنَى منه إلى الآخر .

فقال علىّ :

ـ إنَّ معاوية لم يكنْ ليضع لهذا الأمرِ أحداً هو أوثقُ برأيهِ ونظره من عمرو بن العاص ، وإنّه لا يصلُح للقرشىِّ إلا مثلُه ، فعليكم بعبدِ اللّهِ بن عبَّاس ، فارموه به ، فإنَّ عمْرا لا يعقِدُ عقدةً إلاّ حَلَّها عبدُ الله ، ولا يحِلُّ عقدةً إلا عقدَها ، ولا يُبرِمُ أمراً إلاّ نقضَه ، ولا ينقُض أمراً إلا أبرمَه .

فرفضوا ذلك وَأَبَوْه ، فقال علىٌّ فى ضيق :

ـ قد أبيتُم إلاّ أبا موسى ؟

ـ نعم .

ـ فاصنعوا ما أردتُم .

٢

ذهب رجالُ الإمامِ إلى معاوية ، لكتابةِ وثيقةِ الصُّلح ، فكتبوا :

« هذا ما تقاضَى عليه أميرُ المؤمنين » .

فقال معاوية :

ـ بئسَ الرجلُ أنا إنْ أقررتُ أنّه أميرُ المؤمنينَ ثم قاتلتُه .

وقال عمرو :

ـ اكتُب اسمَه واسمَ أبيه ، إنما هو أميرُكم ، وأما أميرُنا فلا .

فخرج رجالُ الإمامِ إليه ، وأطرق عليٌّ يفكر ، فقال له أحدُ أنصارِه :

ـ لا تمحُ اسمَ إمرةِ المؤمنينَ عنك ، فإنّي أتخوَّفُ إن محوتها ألاّ ترجعَ إليك أبدا ، لا تمحُها وإن قَتل الناسُ بعضُهم بعضا .

فأبى عليٌّ أن يمحُوَها ، حتى جاءه بعضُ أهل العراق وقالوا له :

ـ امحُ هذا الاسم .

فقال الإمامُ في حسرة :

ـ لا إلهَ إلاّ اللّه ، واللّهُ أكبر ، سُنَّةٌ بسُنَّة ، أما واللّهِ لعلَى يدىَّ دار هذا الأمرُ يومَ الحُدَيْبية ، حين كتبتُ الكتابَ عن رسول اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم : « هذا ما تصالح عليه محمدٌ رَسولُ اللّهُ صلَّى اللّه عليه وسلَّم وسُهيْلُ بنُ عمرو » . فقال سُهيْل : لا أُجيبكُ إلى كتابٍ تُسمَّى فيه رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولو أعلمُ أنَّكَ رسولُ اللّهِ لم أقاتلْك ، إنِّى إذًا ظَلمْتُك أن منعتُك أن تطوفَ ببيتِ اللّه ، وأنت رسولُ اللّه ، ولكن اكتُب « محمدُ بنُ عبدِ

اللّه » أجبْك . فقال محمدٌ صلّى اللّـه عليه وسلّم : « يا عليّ ! إنّي رسولُ اللّـه ، وإنّي لمحمدُ ابنُ عبدِ اللّه ، ولن يمحوَ عنّي الرّسالَةَ كتابي إليهم من محمَّدِ بن عبدِ اللّه » . فاليومَ أكتُبها إلى أبنائِهم ، كما كتبها رسولُ اللّه صلّى اللّـه عليه وسلّم إلى آبائهم سُنَّةً وَمَثلا .

وكُتِبتْ وثيقةُ الصُّلح على أنّ عليًا ومن معه من أهلِ العراق ، ومعاوية ومن معه من أهلِ الشّام ، قد نزلا عند حُكم اللّه وكتابه ، فإذا لم يجِدْ أبو موسى الأشعريُّ وعمرُو بنُ العاص في القرآن حُكْما ، حَكَما بما يجدان في السُّنَّةِ العادلةِ غير المفرِّقة ، وعلَى عليٍّ ومعاوية وَتبيعتهما وضعُ السِّلاح إلى انقضاء هذه المدَّة ، وهي من رمضان إلى رمضان ، على أنْ يرجعَ أهلُ العِراق إلى العراق ، وأهلُ الشّام إلى الشّام ، وعلى أن يكونَ الاجتماعُ إلى دُومةِ الجندل .

ووقَّعَ عليٌّ الوثيقة ، وقام رجلٌ إلى الإمامِ عليٍّ أميرِ المؤمنين ، وقال له :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، ما إلى الرُّجوعِ عن هذا الكتابِ سبيل ؟ فواللهِ إنّي لأخافُ أن يورثَ ذُلاً .

فقال عليٌّ :

ـ أبعدَ أن كتبناهُ ننقُضُه ؟ إنَّ هذا لا يحِلّ .

وندِمَ أناسٌ من أصحابِ عليٍّ على قبولِ التحكيم ، بعد فواتِ الأوان ، كما هي عادتُهم ، فنادَوا من كلِّ جهة ، وفي كلِّ ناحية :

ـ لا حَكمَ إلاَّ لله ، الحكمُ لله يا عليُّ لا لك . لا نرضَى أن يحكمَ الرِّجالُ في دينِ الله ، إن الله قد أمضَى حكمَه في معاويةَ وأصحابه ، أن يُقتَلوا أو يَدْخلوا في حكمِنا عليهم . وقد كانت منا زَلَّةٌ حين رضِينا الحكمَيْن ، فرجَعْنا وتُبنا ، فارجعْ أنت يا عليُّ كما رجَعْنا ، وتبْ إلى الله كما تُبْنا ، وإلا برِئنا منك .

ما كان عليٌّ ممن ينقُض عقدا ، فقال لهم :

ـ ويحكم ! أبعدَ الرِّضا والميثاق نرجع ؟ أو ليسَ اللّه تعالى قال : « أوفُوا بالعُقود » ؟ وقال : « وأوفوا بعهدِ اللّه إذا عاهدتُم ولا تنقُضُوا الأيمان بعد توكيدِها ، وقد جعلتُم اللّه عليكم كفيلا ، إن اللّهَ يعلم ما تفعلون » ؟ وأبَى عليٌّ أن ينقُض عهدَه ، وأبى هؤلاءِ الرِّجالُ إلاّ أن يخرجُوا عليه ، ولذلك سُمُّوا « الخَوارج » وعاد الإمامُ إلى الكوفة ، وفارقه الخوارج .

٣

اجتمع عمرٌو وأبو موسى فى دُومةِ الجندل ، وحضر الناسُ ليستمِعوا قولَ الرَّجلين ، فقال عمرٌو لأبى موسى :

ـ يا أبا موسى ، إنْ قال قائلٌ إنّ معاويةَ من الطُّلَقاء (الذين عفا النبىُّ عنهم بعد فتحِ مكة) وأبوه رأسُ الأحزاب ، لم يبايْعه المهاجرون والأنصار

فقد صدق ، وإذا قال إنَّ عليًّا آوى قتلةَ عثمانَ ، وقتلِ أنصارَه يوم الجمل ، وبرز على أهلِ الشّام بصِفِّينَ فقد صدق ، وفينا وفيكم بقيّة ، وإن عادتِ الحربُ ذهب ما بقِي ، فهل لك أن نخلعَهما جميعا ، ونجعلَ الأمرَ لعبدِ اللّه بن عُمر ، فقد صحِبَ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم يبسُط في هذه الحربِ يدًا ولا لسانا ، وقد علمتَ من هو ، مع فضلِه وزُهدِه وورَعِه وعلمه .

كان أبو موسى لا يعدِلُ بعبدِ اللّه بن عمرَ أحدا ، لمكانِه من رسولِ اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ومكانِه من أبيه ، فقال مسرورا :

ـ جزاكَ اللّه بنصيحتِك خيرا .

واجتمع رأيُهما على ذلك ، فقاما أمام الشهود ، فقال عمرو :

ـ يا أبا موسى ، ناشدتُك اللّه تعالى ، من أحقُّ بهذا الأمر ، من أوفى أو من غدَر ؟

ـ من أوفى .

ـ يا أبا موسى ، نشدتُك اللّه تعالى ، ما تقولُ فى عثمان ؟

ـ قُتل مظلوما .

ـ فما الحكمُ فيمن قَتل ؟

ـ يُقتل بكتاب اللّه تعالى .

ـ فمن يقتُله ؟

ـ أولياءُ عثمان .

ـ فإنَّ اللّه يقول فى كتابه العزيز : « ومن قُتِل مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا » ، فهل تعلمُ أن معاويةَ من أولياء عثمان ؟

ـ نعم .

قال عمرٌو للقوم :

ـ اشهدوا :

فقال أبو موسى للقوم :

ـ اشهدوا على ما يقولُ عَمـرو : قُمْ يـا عمـرو ، فقل وصرِّح بما اجتمع عليه رأيى ورأيُك ، وما اتفقنا عليه .

فقال عَمروٌ فى دهاء :

ـ سبحانَ اللّه ! أَقومُ قبلَك وقد قدَّمك اللّـه قبلى فى الإيمانِ والهجرة ، وأَنت وافدُ أَهلِ اليمنِ إلى رسولِ اللّه ، ووافدُ رسول اللّه إليهم ، وبك هداهُم اللّه وعرَّفهم شرائعَ دينِهِ وسنَّةَ نبيِّه ، وصاحبُ مغانمِ أَبى بكر وعمر ؟ ولكن قمْ أنت فقلْ ، ثـم أَقومُ فأقول .

فقام أَبـو موسى فحمـد اللّـه ، وأَثنى عليـه ، ثـم قال :

ـ إنَّ خيرَ النّاسِ للنّاسِ خيرُهم لنفسِـه ، وإنّـى لا أُهلِكُ دينـى لصلاحِ غيرى . إنَّ هـذه الفتنـةَ قـد أَكلتِ العـرب ، وإنّى رأيتُ وعمرًا أن نخلعَ عليًّا

ومعاوية ، ونجعلها لعبدِ اللّهِ بن عُمر ، فإنّـه لم يبسُـط في هذه الحربِ يدًا ولا لسانا .

ثم قام عمرٌو وقال :

ـ إنّ هذا قد قال ما سمِعتُم ، وخلعَ صاحبَه ، وأنـا أخلعُ صاحبَه كما خلعَه ، وأُثبِـتُ صـاحبى معاويـة ، فإنّه ولىُّ عثمانَ بن عفّانَ رضى اللّه عنـه ، والطـالبُ بدمِه ، وأحقُّ الناس بمقامِه .

فقال أبو موسى فى غضب :

ـ مالك ، لا وفّقَكَ اللّه ، غدرتَ وفجـرتَ ، إنما مثَلُك كمثلِ الكلب ؛ إن تَحْمِل عليـه يلهـثْ أو تتركْهُ يلهث .

فقال له عمرو :

ـ إنما مثُلك كمَثلِ الحِمارِ يحمِل أسفارا .

وبلغ الإمامَ خديعة عمرو لأبى موسى ، فقام فى الكوفة ، فخطب النّاس ، فقال :

ــ ألا إنَّ هذين الرَّجلين اللّذين اخترتُموهما حَكَمين ، قد نبذا حكمَ القرآن وراء ظهورهما . وأَحييا ما أماتَ القرآن ، واتَّبعَ كلُّ واحدٍ منهما هواه بغير هُدًى من اللّه ، فحكما بغير حُجَّة بيِّنة ، ولاسُنَّةٍ ماضية ، واختلفا فى حكمِهما ، وكلاهما لم يرشُد ، فبرِئَ اللّهُ منهما ورسولُهُ وصالِحُوا المؤمنين . استعِدُّوا وتأهَّبوا للمسيرِ إلى الشَّام .

وكتب إلى الخوارج أن يوافقوهُ ليسيرُوا معَه لقتال معاوية ، ولكنَّ الخوارجَ رفضوا ، وأراد الإمامُ أن يسيرَ بأهلِ العراق إلى أهلِ الشّام ، ولكنَّ أهلَ العراق لم يُطيعوه . بل طلبُوا منه أنْ يقاتلَ الخوارج ، فسار حتّى نزل المدائن ، والتقى بالخوارج عند النَّهْرَوان ، ودارت بينَه وبينَهم معركَةٌ رهيبة ،

وانتصرَ الإمامُ عليهم ، ثم سار بالنّاسِ حتى نزل بالنُّخيلة ، فعسكر بها ، وأمر الناس أن يلزَموا معَه عسكرَهم ، ويوطِّنوا أنفسَهم على الجهادِ ، حتى يسيروا على عدوِّهم من أهلِ الشّأم ، فأقاموا معه أياما ، ثم رجعوا يتسلّلون ويدخلونَ الكوفة ، وتركوا عليًّا وما معه إلاّ نفرٌ من وجوهِ النّاسِ يسير ، فأطرقَ الإمامُ حزينا ، فقد تيقّن أنَّ أنصارَه قد انفضّوا من حولِه .